

الأهداف التعليمية: تمكين الطالب من التعرف على نظرة برتراندرسل إلى الفلسفة في عصر تطورت فيه العلوم بتطور المناهج العلمية التجريبية، مما تراجع الاهتمام بالفلسفة والنظر إليها على أنها فكر عقيم، لا يقدم حقائق عملية.

المحاضرة الرابعة: موقف برتراند رسل من الفلسفة من خلال كتابه "الفلسفة بنظرة علمية"

لا شك أن الكتاب "الفلسفة بنظرة علمية" من أبداع ما ألفه راسل في حقل العلم والفلسفة، فالكتاب عبارة عن نص فلسفي علمي غني في مادته ومتشعب في موضوعاته أظهر لنا راسل حسه الفلسفي العميق، ونحن بدورنا أثناء قراءتنا لا نستطيع تغطية كل المواضيع الكتاب بل نحرس على إبراز مهم منها فقط.

يبدأ راسل بتوضيح أن الفلسفة تنشأ من الشكوك التي تثيرها المشكلات التي لا تعالجها العلوم عادةً، وهي شكوك تتحدى المعتقدات الشائعة التي يسلم بها الناس. الهدف من دراسة الفلسفة كما يزعم راسل هو محاولة إزالة هذه الشكوك والوصول إلى معرفة أكثر يقيناً ودقة. تتبع هذه الشكوك من عيوب المعرفة الشائعة: التعجل في الوصول لليقين، والغموض، والتناقض. تسعى الفلسفة لاستبدال هذه المعرفة بمعرفة تتسم بالتجريب والدقة والاتساق والشمول، مستفيدة من أصول ومناهج العلوم، وباحثة في المفاهيم الأساسية التي تسلم بها العلوم (كالمادة، والزمان، والمكان، والسببية).

يضرب راسل أمثلة لهذه الشكوك الفلسفية؛ فيبدأ بالشك في حقيقة وجود الأشياء الخارجية كما تبدو لنا، موضعاً أن إدراكنا الحسي يختلف باختلاف الظروف والمشاهدين، وأن التفسير الفيزيائي للأشياء (كمجموعات من الجسيمات) يعتمد هو الآخر على الحواس والاستدلال الذي يفترض صحة مبدأ السببية، مما يضع اليقين المباشر موضع تساؤل.

ثم ينتقل راسل إلى الشك في مصادر معرفية أخرى كالذاكرة وشهادة الآخرين. فالذاكرة، رغم ضرورتها حتى للبحث العلمي، عرضة للخطأ ويمكن الشك في صدقها بشكل جذري (مثل فرضية أن العالم خُلق منذ دقائق بذكريات مزيفة). وشهادة الآخرين، التي نستدل من خلالها على وجود عقول أخرى وأفكار لديهم بناءً على

تشابه سلوكهم اللغوي بسلوكنا، هي عملية استدلال قائمة على المماثلة، وهي ليست يقينية وقد تكون خادعة (مثل حالة الإنسان الآلي أو التماثيل الناطقة).

ثم يحاول راسل معالجة العلاقة المعقدة بين الإنسان وبيئته، إذ يزعم أن هذه العلاقة كمدخل لفهم الإنسان والعالم، مقترحًا البدء بدراسة التأثير المتبادل بينهما.

ينتقد راسل النظرة الفلسفية التقليدية للمعرفة كحالة عقلية باطنية، ويفضل عليها النظرة الموضوعية التي تعتبر المعرفة استجابات سلوكية قابلة للملاحظة والاختبار تجاه المثيرات البيئية. لفهم المعرفة، يقترح راسل تحليلها كعملية تبدأ من العالم الخارجي وتمر عبر الجسم لتنتهي برد فعل جسدي. و يضرب راسل مثالاً لشخص يشاهد سباقًا ويصيح "لقد بدأ السباق"، موضحًا المراحل الأربع لهذه العملية:

*فيزيائية: انتقال الضوء من المتسابقين إلى عين المشاهد.

*فسيولوجية: انتقال الأثر العصبي من العين إلى المخ.

*نفسية/فسيولوجية: معالجة المعلومات في المخ (مرحلة التعلم والوعي).

*فسيولوجية/حركية: انتقال الأوامر من المخ إلى أعضاء النطق لإحداث الصيحة.

يؤكد راسل أن الوعي والإدراك يتطلبان رد فعل في المخ تجاه المنبهات الحسية، وأن الكثير من المنبهات لا تحظى بانتباهنا. كما يفرق بين الأفعال المنعكسة (الفطرية) والأفعال المكتسبة (المتعلمة نتيجة التجربة)، معتبرًا أن المعرفة بمعناها الواسع تنتمي للنوع المكتسب الذي يعتمد على تشكل روابط جديدة في المخ بفعل الخبرة، مثل تعلم اللغة.

يرفض الكاتب الفصل التام بين المعرفة كحالة عقلية والحركة الجسدية كوسيلة للتعبير عنها (كالكلام والكتابة)، مؤكدًا أنه من وجهة نظر المراقب الخارجي، تظهر المعرفة كسلوك أو حركة جسدية. ويرى أن فهم الإدراك (استقبال المنبه) والإرادة (الاستجابة له) يتطلب النظر إليهما كمرحلتين في دورة معرفية واحدة نشطة وفاعلة. يعرج راسل أيضًا إلى الجدل حول آلية عمل الجسم، مفضلًا التفسير الميكانيكي (القائم على قوانين الفيزياء والكيمياء) على المذهب الحيوي، ويرى أن تعقيد الكائن الحي يكمن في درجة تركيبه وليس في خضوعه لقوانين مختلفة. ويميز بين الحركات الآلية (كالسقوط بفعل الجاذبية) والحركات الحيوية (التي تستخدم طاقة الجسم المخزونة وتُحفَّز بمنبهات قد تكون ضئيلة)، وهذه الحركات الحيوية هي محور اهتمام علوم الحياة والنفس.

يشير راسل إلى أن سلوك الكائنات الحية، وخاصة الإنسان، يتعدل بفعل التجربة والتعلم، وهو ما يميز الكائنات الأعلى ويرتبط بالذكاء. وفي الختام، يربط النص السلوك الحيوي بغريزة البقاء والتكاثر، واصفًا إياه بمثابة "استعمار كيميائي" تسعى فيه الكائنات الحية لتحويل البيئة إلى مادة تدعم حياتها ونسلها. ويرى أن أنشطة

الإنسان الواسعة (كالزراعة والصناعة) هي تعبير متقدم عن هذا الدافع الأساسي لتحويل موارد الأرض إلى أجساد بشرية، مع إشارة عابرة إلى إمكانية تحول التركيز نحو "الكيف" بدلاً من "الكم"، وإن كان هذا التحول لا يزال محدوداً.

يعالج راسل موضوع الأخلاق، الذي يُعتبر تقليدياً جزءاً من الفلسفة، على الرغم من رأيه الشخصي بضرورة فصلها عنها. يقدم تعريفاً مؤقتاً للأخلاق بأنها المبادئ العامة التي تحدد قواعد السلوك البشري، مميّزاً إياها عن الوعظ الذي يهتم بكيفية التصرف في مواقف معينة (مثل متى يجوز الكذب).

يرى الكاتب أن علم الأخلاق من منظور فلسفي لا يهتم بقواعد السلوك الفردية والمتغيرة حسب الزمان والمكان والثقافة (والتي قد تختلف حتى داخل المجتمع الواحد)، بل بحث عن المبدأ الأساسي الذي تُستنبط منه هذه القواعد. ينتقد فكرة وجود قواعد أخلاقية ثابتة ومطلقة (كالوصايا العشر أو طاعة السلطة) لعدة أسباب: استحالة شمولها لكل المواقف، إمكانية تعارضها مع النتائج النافعة، وتعدد مصادرها المزعومة (الوحي، التقاليد، الضمير) واختلافها وتغيرها.

يستعرض الكاتب نظريات أخرى في الأخلاق:

* الأخلاق المبنية على النية: حيث يكون الفعل طيباً إذا صدر عن نية طيبة (كما يرى المتصوفة). يراها الكاتب صحيحة عملياً لكنها نتيجة لمبدأ أعمق.

* الأخلاق المبنية على النتائج: حيث يُحكم على الفعل بناءً على نتائجه (مثل مذهب المنفعة الذي يربط الخير بالسعادة). يتفق الكاتب على أهمية النتائج وضرورة مراجعة القوانين الأخلاقية لتحقيق أفضل النتائج والصالح العام، لكنه لا يوافق تماماً على توحيد الخير والسعادة.

* الأخلاق المبنية على الإدراك المباشر: فكرة أن "الخير" مفهوم أولي يُدرك بالفطرة ولا يحتاج لتعريف (كما يرى جورج مور). يرفض الكاتب هذا الرأي حالياً.

يطرح الكاتب وجهة نظره الخاصة: الخير والشر ينشآن عن "الرغبة"، وتحديداً عن ضرورة التوفيق بين الرغبات المتعارضة. يوضح ذلك بمثال روبنسن كروزو الذي يوازن بين رغباته المتضاربة لتحقيق حياة متسقة. يرى أن الهدف الأخلاقي هو تحقيق أكبر قدر من "اتساق الرغبات" وتقليل التنافر بينها، سواء داخل الفرد أو في المجتمع.

لتحقيق هذا الهدف، يقترح وسيلتين:

* النظم الاجتماعية: (سياسية واقتصادية) التي تساعد على التوفيق بين رغبات الأفراد.

* التربية: التي توجه رغبات الأفراد نحو ما لا يتعارض مع رغبات الآخرين، مع التركيز على الصحة والسعادة والحرية وتوجيه حب السيطرة نحو البيئة لا الناس.

يؤكد الكاتب أن الحب أفضل من الكراهية (لأنه يسمح بإشباع رغبات متعددة)، وأن المعرفة أفضل من الجهل (لأنها لا تنتقص من الآخرين) و يختتم الكاتب بتلخيص مذهبه في عبارة: "الحياة الخيرة هي حياة يوحي بها الحب وتهديها المعرفة".

يعالج راسل بشيء من العمق مفهوم السببية في علم الطبيعة، ويقدم رؤية حديثة ومغايرة للفهم التقليدي. يبدأ الكاتب بالإشارة إلى التطور المفاهيمي من فكرة الزمان والمكان المنفصلين إلى مفهوم "الزمان-مكان" كوحدة واحدة كما هو الحال في النسبية عند أينشتاين ، وما يترتب على ذلك من استبدال فكرة "الأشياء" الصلبة بخيوط من الأحداث. ثم ينتقل إلى مناقشة مفهوم السبب، حيث يوضح أن الفهم القديم للسبب في علم الديناميكا كان يعتبره "قوة"، بينما العلم الحديث لا يزال يستخدم هذا المصطلح مجازاً.

يؤكد الكاتب على أن فكرة السببية متأصلة في لغتنا وإدراكنا الفطري، حيث نميل إلى رؤية علاقات سببية طبيعية وواضحة في بعض الحالات (مثل تحريك الذراع بالإرادة) بينما نحتاج إلى تفسير في حالات أخرى. لكنه يحذر من أن هذا الإدراك الفطري قد ينزلق بنا إلى الضلال و الوهم.

يزعم راسل بأن ما نراه في الواقع ليس ضرورة حتمية بين السبب والنتيجة، بل هو مجرد تتابع معتاد للأحداث بناءً على تجاربنا السابقة في ميله إلى رؤية هيوم. فاعتيادنا على رؤية حركة الكرة بعد ضربها بالعصا يجعلنا نتوقع ذلك، وكأن هناك "ضرورة" تربط بينهما، لكن هذه الضرورة لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر.

ينتقد الكاتب فكرة "الإلزام" التي غالباً ما نصاحب بها العلاقة السببية، ويرى أنها نابعة من إسقاطنا لصفاتنا البشرية على الطبيعة. فالإلزام يرتبط بالرغبة والمقاومة، وهما غائبان عن عالم الطبيعة.

يُشير راسل إلى أن الإدراك الفطري يميل إلى تبسيط تتابع الأحداث، بينما الواقع أكثر تعقيداً. فالسبب والنتيجة يفصل بينهما دائماً فترة زمنية، مهما قصرت، يمكن أن تحدث خلالها أحداث أخرى تمنع ظهور النتيجة المتوقعة.

يقترح الكاتب التخلي عن فكرة "القوة" أو "الإلزام" في تفسير الظواهر الطبيعية (قوى خفية تدفع الأشياء وتسبب الأحداث)، واستبدالها بمجرد فكرة "الارتباط". فيجب أن يركز العلم الحديث على وصف الأنماط المنتظمة في تتابع الأحداث. فالقوانين الطبيعية هي وصف لارتباطات معينة بين مجموعات من الأحداث. ويستخدم الكاتب أمثلة مثل شعاع الضوء والإلكترون ليبين أن ما نعتبره "شيئاً" قد يكون في الواقع مجرد خيط من الأحداث المترابطة.

يحذر راسل من الخلط بين الخبرة المباشرة والاستدلال. فما نراه مباشرة هو مجرد لمعة ضوئية، أما اعتقادنا بأننا نرى نفس المنضدة مرة أخرى فهو نتيجة استدلال قد يكون خاطئاً.

يختم راسل قوله أن البحث عن "لماذا" وراء القوانين الطبيعية يقود إلى تسلسل لا نهائي من التفسيرات، كما في حكاية الهندي والفيل والسلحفاة.